معرفة هذا الفرق أتم إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها فى النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل.

أدلة على أن البلاغة فى المعنى لا فى اللفظ :

وأى مساغ للشك فى أن الألفاظ لا تستحق من حيث هى ألفاظ أن تنظم على وجه دون وجه ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ التى هى لغات دلالتها لما كان شيء منها أحق بالتقديم من شيء لا يتصور أن يجب فيها ترتيب ونظم ... ودليل آخر وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعانى فى النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغى أن لا يختلف حال اثنين فى العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ فى النطق إحساساً واحداً ولا يعرف أحدهما فى ذلك شيئاً يجهله الآخر.

وأوضح من هذا كله وهو أن هذا النظم الذى يتواصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة. وإذا كانت مما يستعان عليه بالفكر ويستخرج بالروية فينبغى أن يظن فى الفكر بماذا تلبس؟ : أم بالمعانى؟ أم بالألفاظ ؟ فأى شيء وجدته الذى تلبس به فكرك مندبين المعانى والألفاظ فهو الذى تحدث فيه صنعتك وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك فمحال أن تتفكر فى شيء وأنت لا تصنع فيه شيئاً وإنما تصنع فى غيره، اللفظ خادم للمعنى، وهذا دليل على أن البلاغة تكون فى المعنى لا فى اللفظ.

إنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ولا أن تتوخى فى الألفاظ من حيث هى ألفاظ ترتيباً ونظماً وإنك تتوخى الترتيب فى المعانى وتعمل الفكر هناك فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وفوت بها آثارها، وإنك إذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً فى ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها وأن العلم بمواقع المعانى فى النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها فى النطق.